

الدرس الثالث: الفكر التاريخي عند الغرب من عصر الإغريق إلى مرحلة ما بعد الحوليات.

عرفت الكتابة التاريخية في الحضارة الغربية عديد المراحل المتميزة قياسا بتعامل المؤرخين وطرائقهم في سرد الأحداث التاريخية وعرضها، هذه المراحل والتطورات الفكرية والمنهجية سمحت بانتقال الكتابة التاريخية من الطابع الأسطوري وطغيان عنصر الزمن والخيال وغياب المصادر إلى كتابة تاريخية تتصف بالعلمية (علمية التاريخ) ويمكننا إبراز هذه المراحل والتطورات المنهجية والفكرية التي عرفها الفكر التاريخي عند الغرب فيما يلي:

1- التاريخ عند الإغريق: تعتبر مدرسة هوميروس كأول مدرسة علمت كتاب التاريخ أن يمجدا البطولة، فكان هيرودوتس (420-484 ق. م) صاحب كتاب التاريخ (9 كتب في مجلد واحد) أول المؤرخين الذين نبهوا إلى تخليد البطولات: "أنا أفهم بكتابتي هذا التاريخ، الاحتفاظ بمآثر الرجال لكي لا يمحوها الزمان، ولكي لا تبقى جلائل المآثر ومدهشاتها، سوا أكانت يونانية أم بربرية دون تعظيم وامتداح"، إلا أن ما ميز كتابات هيرودوت هو كثرة الرؤى والخوارق والكرامات والمشاهد الوصفية الخيالية رغم محاولاته المنهجية للتخلص من الأسطورة (ما جعل الكثير من الباحثين يرون أن هيرودوت هو أول من حقق التاريخ)، وتبقى أهم ميزة في الكتابة التاريخية عند هيرودوت هي الصبغة العالمية واهتمامه بتدوين أخبار الدول الأخرى دون الاقتصار على الأويكومين الإغريقي، فلم ينحاز إلى قوميته الإغريقية في معرض حديثه عن الفرس أو الفينيقيين.

جاء بعده مؤرخين آخرون في صورة توسيديد (395-460 ق. م) في كتابه الحروب البيلوبونيسية، وبوليبيوس (200-120 ق م) في كتابه التاريخ، اللذان حولاً إضفاء المزيد من الصرامة في تحقيق الرواية التاريخية وتنقية التاريخ من الأسطورة، ما جعل منهما رمزين حقيقيين في مسألة التعامل مع الرواية التاريخية والاعتماد على العقل والنقد بعيداً عن الأسطورة في هذا نذكر بوليبيوس وهو يهزأ من الكتاب الذين صوراً حنبعل وإله يقوده أثناء مروره بجبال الألب: "هؤلاء الكتاب يعانون الحاجة نفسها التي يعانيها شعراء المسرح، ففي الكثير من مسرحياتنا يحتاج الحل إلى تدخل إله، لأن مؤلفينا ينتقون الخرافات من خارج نطاق الحقيقة

منهجية وتقنيات البحث التاريخي 1 د. بوقارة عبد الرحمان جامعة جيجل

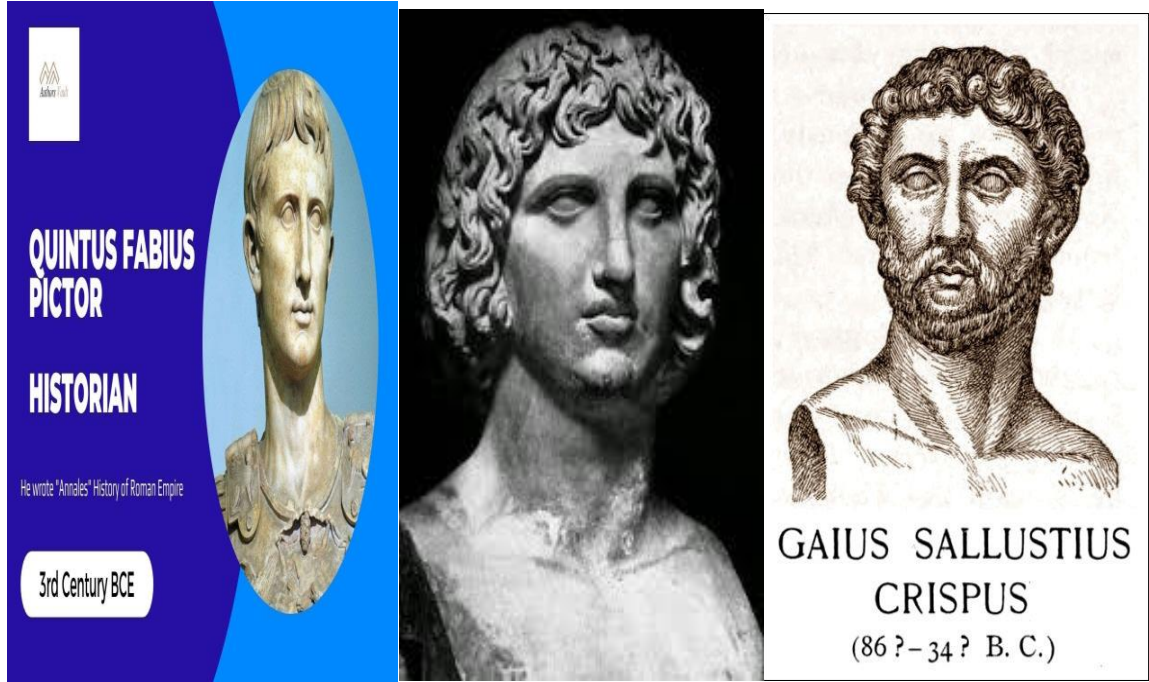
والعقل، وهكذا يرى مؤرخونا أنفسهم مجبرين على إظهار أبطال أو آلهة لأنهم من الآخذين بمبدأ الالتزام بالحقيقة ولا بما يشبهها، فكيف إذن يمكننا أن نعطي لبداية مبهمة نهاية معقولة".



2- الكتابة التاريخية عند الرومان: تمكن المؤرخين الرومان من إيجاد علاقات بين الأساطير الدينية والامكانيات البشرية خدمة لتوجهاتهم وطموحاتهم الإمبراطورية، هذا ما جعل التاريخ عند الرومان بمثابة وظيفة رسمية من وظائف الدولة تهتم بتاريخ الرومان وأبطال روما فأسسوا لذات الغرض "مخازن وثائق" في روما منذ بداياتهم، وهذا ما جعل من التاريخ عند الرومان بمثابة تاريخ نفعي يقوم دائما حول شخصية مركزية وكانت روما نفسها هي تلك الشخصية المركزية فكل مؤرخ عندهم يجب أن يؤمن لشعبه عناوين نصره وكنزه من الحكمة السياسية التي ترى أن روما هي قبل كل شيء، إلا أن الكتاب الرومان لم يتخلوا في كتاباتهم عن الأسطورة فغلب على كتاباتهم الطابع الملحمي والأسطوري في وصف أبطالهم، وتحقير كل أعداء روما وتصغيرهم ووصفهم بالبرابرة...

ومن المؤرخين الرومان يمكننا أن نذكر: كتابات فابيوس بيكتور (254 ق.م)، كتابات الشاعر أنيوس (ت 169 ق.م) والذي تحدث بملحمية عن أصل الرومان وأعادهم للأصل الطروادي، كتابات سالوست (86-34 ق.م) صاحب كتاب حرب يوغرطة، الشاعر فرجيل (70-19 ق.م)، يوليوس قيصر (100-44 ق.م) ومن كتبه "الحروب الأهلية"، "حروب بلاد الغال"، ديودوروس الصقلي (90-20 ق.م) في كتابه المكتبة التاريخية الذي أمدنا بمعلومات

عن الحضور القرطاجي في صقلية وخاصة سرقوسة، تيتيوس ليفيوس (59ق م-17م) في كتابه التاريخ الروماني تطرق للحروب الرومانية القرطاجية والمعاهدات الرومانية القرطاجية.



فابيوس بكتور

فرجيل

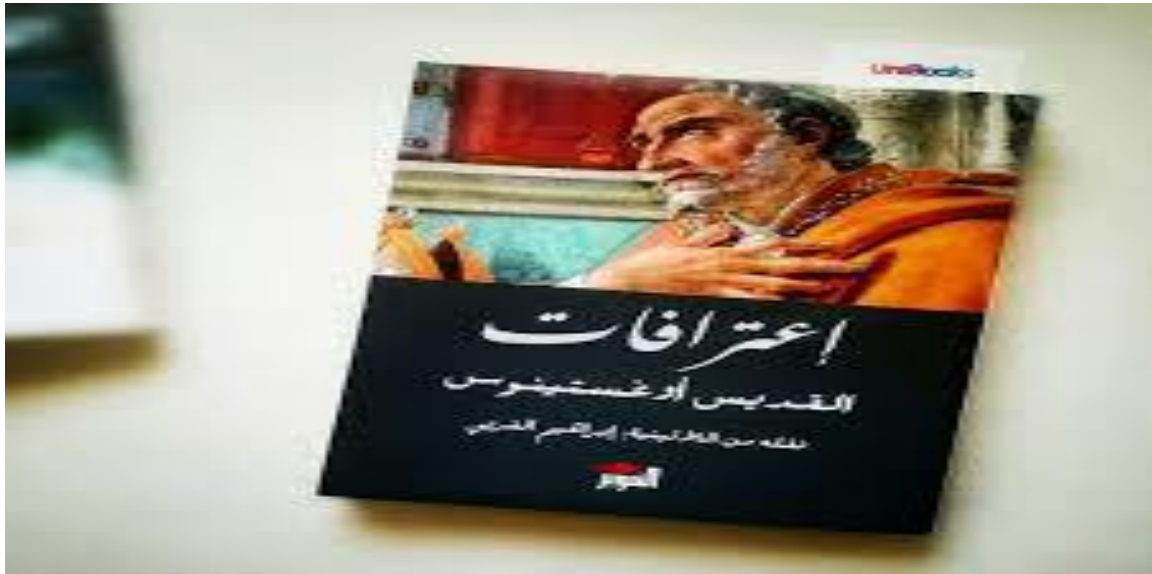
سالوست

3. الكتابة التاريخية في أوروبا خلال العصور الوسطى: ارتبطت الكتابة التاريخية في أوروبا في العصور الوسطى بالتفسير الديني للتاريخ، وأن محور التاريخ هو ظهور الأنبياء، ويعزى هذا إلى سيطرة الكنسية على الفكر الأوروبي في القرون الوسطى، فالتاريخ عند الأوروبيين في العصور الوسطى هو الاعتقاد بقوة ثابتة مستقرة تقف وراء التطورات والأحداث التي يعرفها المجتمع الإنساني، فالتاريخ: "مسيرا ومحكوما من الله وفقا لما يحلوا له" على حد وصف القديس أوغستينوس (ت 450م).

ومن هذا المنطلق جاءت الكتابة التاريخية في أوروبا خلال العصور الوسطى في صورة قريبة من صورة الدراما الإغريقية إلا أن أبطالها هم الأنبياء، فتناول الكتاب خطبة آدم وخروجه من الجنة، مسألة الذات الإلهية والمسيح، وعلاقات يسوع بالحواريين، الثالوث (الأب الابن والروح القدس)، كما اهتم رجال الكنائس والأديرة والرهبان بأرشفة الصكوك وجداول ملكية

الأديرة وإقطاعاتها، وهو ما جعل الكنسية بمثابة أرشيف حقيقي غني بالمستندات ومصادر كتابة تاريخ أوروبا في العصور الوسطى.

ومن أهم كتاب التاريخ في أوروبا خلال العصور الوسطى نذكر: أوزبيوس القيصر (ت 310م) صاحب كتاب "التاريخ الكنسي"، القديس جيروم (ت 420م) صاحب كتاب "مشاهير الرجال"، القديس أوغوستينوس (354-450م) وكتابه "مدينة الله" و"الاعتراف" ...



4- الكتابة التاريخية في أوروبا خلال عصر النهضة: مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ابتدأ عصر النهضة (الانبعاث) في أوروبا (Renaissance) نهضة فكرية، خرجت بأوروبا من عصر الظلمات إلى عصر التنوير، ومعها بدأت بوادر الكتابة التاريخية في التحرر من قيود الكنيسة ورجال الدين، ما أوجب أن يكون القصص التاريخي متسلسل الأفكار والأحداث، فأصبحت اللغة المستعملة أشد تماسكا وأكثر نضجا، حتى أن بعض المؤرخين والمفكرين عاد إلى اللغة اللاتينية، فبدأت العقلانية تغزو التاريخ وتستبعد عنه المدهش والمغاير للطبيعة، والخارج عن تصورات العقل وضعفت النظرة التي تعتبر المؤرخ خادما للدولة ورجال الدين، فكانت إيطاليا ومدنها ومؤرخيها هي المحرك الأساس لهذه الأفكار، ومن رواد هذا التوجه نجد "نيكولا ميكافلي" (1469-1527م) الذي رأى أن القرار السياسي مرتبط بالحكام بعيدا عن أي تدخل غيبي، ثم جاء الفرنسي "جان بودان" (1530-1596م) الذي أعاد استخدام الشك في معالجة الروايات التاريخية، وأكد على أن دراسة التاريخ في المقام الأول هو مجرد قيمة

عملية براغماتية للأخلاق والسياسة، إضافة إلى هؤلاء نجد كلا من توماس هوبز (1588-1679م) الذي ركز على فكرة العقد الاجتماعي وأهمية المجتمع دون الاقتصار على الدولة فقط كمحرك للأحداث التاريخية، جون لوك (1633-1704م) فدعا للفصل بين السلطات المدنية والدينية للوصول إلى حركية تاريخية صحيحة.



ميكافيللي

توماس هوبز

جون لوك

5- الكتابة التاريخية في أوروبا الحديثة والمعاصرة: منذ نهاية القرن السابع عشر وإلى غاية الثورة الفرنسية 1789م تراجعت الكتابات التي تتمحور حول سير الفرسان وأخلاق الفروسية والأبطال والخيال وطغيان الدين فاتحة المجال أمام الكتابات التاريخية القومية في أوروبا، حيث شعر مؤسسي الكيانات القومية الأوروبية الحديثة بالحاجة للتاريخ لتثبيت دولهم وحدودها ومشروعية حكمهم وتمايزهم عن جيرانهم، ففتح المجال أمام المؤرخين لمعرفة الماضي فبرزت الكثير من المدارس التاريخية (سنتطرق إليها في محاضرة لاحقا) لعل أهمها:

- أعمال المؤرخين الألمان: فحركة الوحدة الألمانية قد احتاجت لشرعية تاريخية تجسدت من خلال أعمال نيبوهر، رانكا، بوركهارت، فحاولوا معرفة التاريخ الصحيح انطلاقاً من الوثائق، فالمؤرخ حسبهم لا يقول شيئاً إنما الوثيقة هي التي تقول.
- ثم جاء مونتيسكيو وقام بتخليص التاريخ من الغيبيات معتبراً أن تاريخ كل أمة تتحكم فيه جملة من العوامل الطبيعية والمناخية والأخلاق.
- أما فولتير (مؤسس التاريخ بطبيعته الحالية) فخلص التاريخ من سير الأمراء والأبطال وانتقل بالتاريخ لدراسة الإنسان، والأخلاق، والتاريخ الاجتماعي والاقتصادي ...، كما تخطى فولتير عن التقسيم الحولي للتاريخ بالسنين وانتقل لترتيب القضايا التاريخية انطلاقاً من موضوعاتها، وهو نفس التوجه الذي سار عليه مارك بلوك، ولوسيان فيفر رواد مدرسة الحوليات.
- في حين انطلق كارل ماركس من التفسير المادي للتاريخ معتبراً أن المادة هي التي تتحكم في كل المجتمعات ومن هذا المنطلق قسم التاريخ إلى حقبة مغيرة للمعارف عليها فجعلها (بدائية، إقطاعية، برجوازية، اشتراكية، شيوعية)
- أما جوزيف أرنولد توينبي فاعتمد منهج البحث المقارن للحضارات ومسألة التحدي والاستجابة، معتمداً على التفسير الحضاري للتاريخ.

مراجع حول الدرس:

- 1- قاسم يزبك: التاريخ ومنهج البحث التاريخي، ط. 1، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، 1990.
- 2- وجيه كوثراني: تاريخ التأريخ اتجاهات-مدارس-مناهج، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط. 2، بيروت، لبنان، 2013.
- 3- حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ط. 2، دار المعارف، القاهرة، 1964.